صور من الحياة :

يوم عيد ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

ما أشد وقعك — يا يوم العيد — على نفسي ، لأنك قذى في عيني وشجى في حلق وأسى في قلبي ! فالدار خاوية من الأحباء تلفظني في غير هوادة ولا لين ، والطريق خلو من الرفيق يدعني إلى غير غاية ، والنفس خواء إلا من خطرات الحزن وخلجات الأسى ، والقلب يحس لذع الوحدة فيئس الجدب والإمحال فيما حوله وإنه ليرى الدنيا أمامه تموج بالزهر النضير والفرحة المترعة والعيش الهنيء والثوب الجديد . وهؤلاء أقاربي قد حبوني بالجفوة والقلى ، فرّق بيني وبينهم تهم المال وجشع الذهب فما أرى فيهم إلا العداوة والبغضاء وإلا الازورار والعبوس ، وأخي ... أخي الذي أحبه قد أوصد بابه من دوني لأنه أراد أن يكون واحداً من ذوي قرابتي . أما زوجي فقد فزعت عني لاختلاف في الرأي والثقافة وتباين في المشرب والبيئة ، فخلت رشدها واستقامت إلى حاقتها فطارت إلى دار أبيها لتقرني وحيداً في يوم العيد . وأيناني أين هم ! إنهم لم يخرجوا — بعد — في فناء الدار فتمتلىء بهم حياة وبهجة ، ويطفح قلبي نوراً وضياء وتزخر نفسي هدوءاً وسكينة .

وجلست إلى نفسي أشكو بثي وأنا أشرف على الناس من حولي وهم يضطربون في لجة العيد ، يرفلون في الجديد ويتدافعون إلى البشرى ويتقمرون في المرح . ووجدت لوحدتي حرقة شاقت لها نفسي فترقرقت العبرات في محجريّ تريد أن تنهمر ... وشملني الحزن على أن أكون رجلا لمست في فوديه شعرات بيض علامة الرجولة والعقل ، وتألقت في رأسه فلسفة الحياة ، وكابد حلو العيش ومُرّه ؛ ثم أستخذي لهذه الخواطر أو أتعبّد للضعف الإنساني وآذاني أن أستسلم للوحدة فتصفعني مرة وتعركني مرة ثم لا أستطيع أن أنفلت من بين مخالبها وإنها لتعصرني عصراً .

وأهبت بشجاعتي فطرت عن الدار علّي أجد السلوى والراحة أو أجد متنفساً من هوى أو أنفض عن نفسي الشجن ، فألفيت — آخر الأمر — ملجأ في مقهى من مقاهي القاهرة .

* * *

وفي المقهى جلست إلى فنجان القهوة والسيجارة أتحدث إليهما حديث ميراث ضئيل لم أطعم لذته بعد ولكني أدفع ثمنه قطرات من دمي الحار أنزفها يوم العيد من خلال هموم تتوزعني فلا تذرني إلا حطاماً . وغرقت في خضم الفكرة فاستولت على مشاعري فما أحس بما يدور حولي شيئاً . وغبرت ساعة فما أفزعني عن شواغل نفسي غير رجل يطلب صدقة .

وفي مقاهي القاهرة مفزعات تنفي عنها الحكومة فتنطلق من مكامنها في وضح النهار لتزعج الآمن في جلسته وتقطع عليه خواطره وتؤذي نفسه ... مفزعات منها ماسح الأحذية وبائع أوراق النصيب و... والشحاذ . ليت الحكومة تعرف أن القهوة مثابة يستجم فيها المرء من عناء أو يستريح من نصب ، وليتها توقن بأن هذه الزمر من المفزعات وصمة في جبين البلد لا تستطيع يد أن تمتد إليها فتمحوها إلا يدها هي ، ليتها تعلم ، ليت ...

واستقر الرجل إلى جانبي لا يريم فرفعت بصري إليه أنظر . وعجبت أن رأيت أمامي شحاذاً في ثوب العيد وسمته ، لعله أراد هو أيضاً أن ينعم بفرحة العيد وسعادته ! وهو رجل قد تخطى عمر الكهولة فبدا عليه أثر الضعف والهزال ، ولكنه تجمّل للأيام فهو حليق الذقن مفتول الشارب تفوح منه رائحة عطر خفيفة لا يتنشاها إلا من أصاب قوة في حاسة الشم ، وهو يرتدي بذلة أفرنجية أنيقة قريبة عهد بالكواء ، وقميصاً أبيض ناصع البياض يزينه رباط رقبة أسود جميل ، ويتألق على رأسه طربوش أحمر قان ، وحذاؤه لامع نظيف .

ووقف الرجل بإزائي في أدب يسأل في هدوء ويطلب في خضوع رغم أنه شديد الإلحاح ضيق الوجه . وراعني أن أرى هذا الرجل في زيّه وهندامه يتكفف الناس في غير حياء ولا خجل ، ولكن نفسي حدثتني قائلة « لعلها ما ترى بقية عيز باد منذ زمان ! » فجبوته بمض عطن ثم سرحته في لين .

ونظر إليّ النادل — وهو يعرفني منذ سنوات — نظرة ذات معنى وابتسم حين رآني أنفح هذا الشحاذ الأنيق بشيء من المال . ورابني ما رأيت من النادل . فقلت لعل في الأمر حادثة أو متعة ، فنادبته أريد أن أكشف عن الخبر ، فقال : « أفلا منحت

دراهمك — يا سيدى — لفقير تقتله الحاجة ، أو مسكين تلح عليه الفاقة ! » قلت : « ولكن الرجل يسأل الناس ، فما باله ؟ وإنى لأراه جميل الهيأة ، أنيق المظهر ، يسرى فى عروقه دم الشباب ، وأن بلغ سن الشيخوخة ؟ » قال : « إن له حديثاً » . قلت : « هات » . فقال : هذا رجل واهى الرجولة ، ساقط الإنسانية ، وضيع الكرامة ، وهو شحيح النفس ، كز اليد ، بخيل الجبلة ، يقضى نهاره بين مقاهى القاهرة يتكفف الناس فى أدب ويسألهم فى ذوق ، يمرّ عليهم بخضوعه ويزوّر بمسكنته ، يتخذ من ذلك مهنة يزجى بها الفراغ ، وعملاً يقتل به الوقت ، فلا يأوى إلى داره آخر النهار أو أول الليل إلا وقد امتلأت يده وفاض بجيبه ، ثم هو يحرم نفسه من كل ما أصاب فيقنع باللقمة ويرضى بالكسرة ...

ولقد كان موظفاً فى الحكومة أحيل على المعاش ليلوغه سن التقاعد ، سن الستين . والحكومة تلفظ الموظف حين يصيبه الكلال من أثر الكبر والشيخوخة ، ولا تطرده إن اتحلت أخلاقه واتّسخت كرامته وتمزقت إنسانيته . وهى تطلب من ذى العمل الشريف أن يحصل على رخصة ، فترهقه فى الطلب وتسد عليه المسالك وتضيق الخناق ، ثم تذر صاحب المهنة الوضيعة يتقلب فى الشوارع كيف يشاء . وهى — دائماً — تزعج التاجر فى متجره أو الصانع فى مصنعه ، تكلفه الشطط وتحمله الرهق ، على حين تطلق العنان للشحاذ يستلب الناس من أموالهم فى غير رقبة ولا حذر . إن أخى — يا سيدى — خيّاط ، دفعه الأمل إلى أن يفتح دكاناً عسى أن يصيب منه قوت عياله ، وطمع أن يدر عليه أخلاف الرزق بعد عسرة ، فانحطت عليه وزارة الصحة ومصلحة العمل فى وقت معاً ، حتى أرغمته على أن يغلق الدكان بعد أن سار شوطاً فيه التوفيق والنجاح . فماذا ترى ؟ لعل الحكومة تريد أن تقول للعامل الشريف : كن عاطلاً . وتقول للشحاذ : تمتع كيف تشاء !

هذا الرجل أحيل على المعاش ، وإن دخله ليربو على خمسة عشر جنيهاً ، وله زوجة وأولاد . فلما أحيل على المعاش سوّل له خرف الشيخوخة أن يطرد زوجه وأولاده ثم ينطلق هو فى نواحى القاهرة يتكفف الناس ، فطرد أولاده جميعاً وإن فيها الصبى واليافع ، ألقى بهم إلى الشارع ليذوقوا مرارة الحرمان وحرقة الفاقة ولذع الضياع ، ولفظتهم المدرسة حين لم يجدوا ثمن العلم ، وفيهم الذكى المجتهد والسابق المتفوق ، ورآهم هو على حالهم هذه فلم ينبض قلبه برحمة ولا خفقت نفسه بشفقة . ثم غوى مرة أخرى فطرد زوجه وهى عجوز انهد كيانها وذوى عودها ، وهى فقيرة لا تجد ما تتبلغ به إلا دريهمات يقلّها وقف . والوقف يملك ضائع وقع بين فكين شديدين : ناظر الوقف وهو رجل لا يرتدع من دين ولا يرعوى من ذمة ، يثقل الوقف بما لا يطيق ، ثم يزعم بأن الأرض لا تغل شيئاً . ووزارة الأوقاف وهى ترقب فى غير رعاية وتحاسب فى غير دقة ، والمستحق يقف ببابها مثلما يقف الشحاذ فيه الحياء بباب كز شحيح فلا يظفر إلا بالشتيمة والطرد ... يقف دهراً لينال فضلة من مال لا تسمن من جوع ولا تغنى من عرى ... أما هو فهو كما ترى ...

***

وتركنى التأمل وإن الأفكار لتصطرع فى خاطرى من أثر حديثه ، وأصابنى الجزع أن تثور حماقة سلوك عجوز فتلقى بصبية صغار إلى عرض الشارع ، تضربهم الفاقة وتصفعهم الحاجة وقد فقدوا — على حين فجأة — عطف الأب وحنان الأم وسعادة العيش فى وقت معاً ، وأن أرى زوجة عجوزاً تضطرب فى غمرات الكرب تأسى على تاريخ طويل كانت تنعم فيه براحة الضمير فى الدار ، وبهجة القلب فى الأولاد ، وعز الحياة فى الزوج . وآذانى أن يكفر هذا الرجل بحق زوجته وهى رفيقة الصبا وصديقة الشباب وعمود الأسرة ، وأن يجحد فضلها وهو قد قضى عمره فى كنفها يسعد بالهدوء والطمأنينة ، وأن ينسى أن الأسرة معنى من معانى الإنسانية السامية لا ينزع عنها إلا الأحمق والمجنون !

أفأمن الرجل أن تتدفق عليه بلايا الأيام أو أن تنصب عليه مصائب الزمن ، فتذره حطاماً فى ناحية من حجرة يقاسى المنت والشدة ، ثم لا يجد الآسى فى زوجته ولا العون فى أولاده ؟

ولكن ... آه ، إن فى الناس وحوشاً ضارية لا تشبع إلا أن تلغ فى دم الإنسان ، وأن تنهش لحمه ، وأن تفرى عظمه !

يا قلبى ! لقد فزعت من دارى لأنفض عن نفسى هماً واحداً فرجعت بهمين : همى وهمّ هذا الحيوان المفترس الذى يتكفف الناس فى غير حياء ولا خجل !

فما أشد وقعك على نفسى ... يا يوم العيد !

كامل محمود حبيب